

طرابلس الفيحاء

من قلب الماضي ينبض الحاضر

استطلاع: وهدى كوراني

تألفت.. ولبست أزهى أثوابها الفكرية والثقافية زمن بني عمّار في العصر الفاطمي... ونشرت عطر التسامح الديني بين أبنائها في جو قلّ في مثيلاتها من المدن الإسلامية، فأصبحت قبلة أنظار العلماء والمفكرين والأدباء والشعراء، ونعمت برخاء اقتصادي بفضل الاهتمام بالزراعة والصناعة.

وكانت طرابلس طوال العصور الإسلامية، ثغراً لحماية سواحل الشام من غزوات الإفرنج. وإذ استطاع الصليبيون دخولها عنوة، فقد استعادت حريتها على يد المماليك الذين غلبوا مذهبهم الديني على سواه من المذاهب.

في هذا الاستطلاع ننقل بين المجمّعات الأثرية التي تجمع بين الأوابد الرومانية والبيزنطية والآثار الفاطمية والصليبية والعمارة المملوكية والعثمانية، ونقدم لمحة تاريخية، وموجزاً عن حاضر هذه المدينة الجميلة بموقعها وعماراتها وشوارعها ومساحاتها، وبما يحيط بها من بساتين ومناظر خلابة.

طرابلس الحديثة

تقع مدينة طرابلس اللبنانية في منتصف الساحل الشرقي لحوض البحر الأبيض المتوسط، وتبعد مسافة ٨٨ كلم شمالاً عن العاصمة بيروت، وحوالي ٤٠ كلم عن الحدود السورية. تمتد هذه المدينة على ضفتي نهر قاديشا المعروف بنهر (أبو علي) في النقطة التي يصل إلى السهل متدفقاً من مرتفعات جبل لبنان. وتقوم على ضفتي النهر تلتان غنيتان بأشجار الزيتون، وعامرتان بالمباني الجديدة، والتلتان تشرفان على المدينة بكاملها، التلة اليمنى تسمى (القبة)، وهي منطقة سكنية في أغلبها، وتقع فيها مباني الجامعة اللبنانية بمختلف فروعها، والتلة اليسرى تسمى (أبو سمراء) وهي في معظمها منطقة سكنية، بها عدد من المدارس وبعض الجامعات الخاصة والمعاهد، كجامعة "الجنان" وجامعة "المنار"، وجامعة "طرابلس"، حيث كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، وغيرها. أما محلة التبانة، فتقع شمالي المدينة

وتصل طرابلس ببلدة البداوي، ومنها إلى الطريق الدولي المؤدي إلى سوريا، تشتهر بأسواقها القديمة وبمحلات بيع الخضار والفواكه، وهي منطقة سكنية - تجارية في آن معاً.

وبلدة البداوي كانت ولا تزال تشكل منتزهاً للعديد من سكان المدينة وخارجها، ففيها جامع ومقام تاريخيان، وبركة كبيرة اشتهرت في التاريخ بأسمائها (المقدسة)، كما فيها معامل صناعة الزجاج التقليدية. وتقع على الساحل، شمالي البداوي، مصفاة النفط الأضخم في لبنان، والتي كان فيها تكرير النفط القادم عبر الأنابيب من مدينة (كركوك) في العراق.

وتقع محلة الزاهرية (الظاهرية) شمالي مدينة طرابلس القديمة، وعلى حدودها، وهي منطقة سكنية تتميز بمبانيها ذات الطرازين المعماريين العثمانيين واللبناني التقليدي، بها عدة كنائس، ومدارس، ومعامل لصناعة الصابون التقليدي، ومصانع ومعارض للأثاث.

تمتد طرابلس من الجنوب إلى الشمال نحو الكيلومترين، ومن الشرق إلى الغرب نحو الكيلومتر ونصف الكيلومتر، وتضم بين جنباتها المؤسسات الرسمية والمؤسسات المصرفية ومراكز البريد والاتصالات ومراكز المواصلات البرية ووكالات السياحة والسفر والفنادق والمنتجعات الساحلية والمراكز التجارية والمراكز الثقافية والمؤسسات التعليمية، وفيها معرض رشيد كرامي - طرابلس - الدولي، المتميز بطابعه الهندسي الحديث المميز، والذي يعدّ الخامس في العالم من حيث تنوع مبانيه وضخامة مساحته التي تبلغ مليون متر مربع.

كما تضم بين جنباتها أكثر من ١٦٠ معلماً تاريخياً بين مسجد، وقلعة، ومدرسة، وخان، وحمام عام، وسوق، وسبيل مياه، وكتابات ونقوش، وغيرها من المعالم الجمالية والفنية.

يسكنها حوالي نصف مليون نسمة، وتعتبر مركز محافظة الشمال، وتواكب بجهد أبنائها ركب التطور والحداثة، مع تمسكها بإرث الأجداد، وهي كما وصفها المؤرخون: برية - بحرية، سهلية - جبلية، شامية - مصرية.

لمحة تاريخية عن طرابلس

أ. تأسيسها واسمها

في القرن السابع قبل الميلاد، أسس الفينيقيون (أهالي صور وصيدا وأرود) مدينة طرابلس، وأطلقوا عليها اسم (أثر) وكانت تتألف يومئذٍ من ثلاثة أحياء (كايسا ومايسا ومخلات)، وضربوا حولها الأسوار.

برع أهلها في صناعة السفن حتى لقبوا بعرائس البحر، وبعد فترة من الزمن أخذت طرابلس اسم المدينة الثلاثية (تريبوليس) التي عربها الفاتحون العرب فصارت طرابلس.

تعاقت على طرابلس الأمم والعهود من الفينيقيين حتى الانتداب الفرنسي، مروراً بالرومان والبيزنطيين والعرب والفرنجة والمماليك والعثمانيين.

ب. الفتح الإسلامي لمدينة طرابلس:

بعد معركة اليرموك التي انتصر فيها المسلمون على جيوش هرقل، إمبراطور الروم، انفتحت الطريق أمامهم للوصول إلى مدن ساحل الشام فتساقطت المدن تباعاً. وفي زمن الخليفة الثالث عثمان بن عفان، أرسل واليه على الشام معاوية بن أبي سفيان، القائد سفيان بن مجيب الأزدي الذي كان أميراً على بعلبك، فحاصر المدينة بعد أن استعصت على يزيد بن أبي سفيان مدة من الزمن، فدخلها سنة ٢٥هـ/٦٤٤م، ورُفعت راية الإسلام فوق أسوارها لتبدأ مسيرة طرابلس المسلمة، ولتصبح ثغراً ورباطاً للمرابطين والغزاة المسلمين ضد البيزنطيين والجراجمة والمردة، ثم ضد الصليبيين والتتار وقراصنة الإفرنج من بعدهم، وأصبحت المدينة تجمع في جنباتها خليطاً من الأمم والأديان في جو من التآخي والتسامح.

ج. طرابلس في العهد الأموي

أصبحت طرابلس في عصر بني أمية قاعدة بحرية ودار صناعة نظراً لتوافر أخشاب الأرز اللبناني في الجبال القريبة منها. في عهد معاوية، بنى الطرابلسيون أول أسطول حقق للمسلمين انتصاراً ساحقاً على الأسطول البيزنطي في موقعة ذات الصواري الشهيرة في سنة ٣٤هـ/٦٥٥. وفي عهد الخليفة عبد الملك بن مروان، أعيد بناء حصن طرابلس البحري القديم، وصارت المدينة في أيامه آمنة ومطمئنة. وظلت طرابلس طوال العصر الأموي أحد ثغور الشام الحصينة التي اهتم بها الخلفاء الأمويون، فرمموا قلاعها وأسوارها، وحشدوا فيها الجنود المقاتلين.

د. طرابلس في العهد العباسي

يتسم تاريخ طرابلس في أواخر العهد الأموي ومطلع العباسي بالغموض، مثلها مثل بقية مدن الساحل الشامي، حيث ينقطع ذكرها من المصادر التاريخية طوال القرن الثاني والنصف الأول من القرن الثالث الهجري، ولا شك أن ذلك كان بتأثير انتقال مركز الخلافة من دمشق إلى بغداد سنة ١٣٢هـ/٧٧٠م.

في هذا العهد كانت طرابلس قاعدة كورة تضم: عرقة، وأنفة والبترون، وعراف إقليم الكورة في الجنوب الشرقي من طرابلس بهذا الاسم منذ ذلك الوقت. وبعد أن تمكن الأمير أحمد بن طولون من ضم دمشق وحمص وأنطاكية، أصبحت طرابلس في العام ٢٦٤هـ/٩٧٨م تابعة لأبي طولون في مصر، ثم تعود إلى العباسيين لفترة قصيرة فيزورها الشاعر أبو الطيب المتنبي ويمدح واليها (ابن خرسان) مسجلاً لأهلها بيتاً من الشعر يتغنون به على مرّ الزمان:

أكارم حسد الأرض السماء بهم وقصرت كل مصر عن طرابلس
ثم تنضوي تحت لواء الجولة الإخشيدية، ويصفها الأصطخري حينئذ بأنها مدينة عامرة واسعة، ذات نخل وقصب سكر وخصب.

هـ. طرابلس الفاطمية:

أصبحت طرابلس في عهد الفاطميين ولاية قائمة بحد ذاتها، لا تتبع دمشق، بعدما أضحت مركز ولاية كبيرة تمتد سلطة واليها وقضاتها حتى جونية ونهر الكلب جنوباً، وواصل نفوذ قاضيها علي بن عبد الواحد بن حيدورة إلى مدينة صور في سنة ٤٠١هـ/١٠١٠م، حيث عين عليها نائبا يحكمها من قبله، واصل نفوذه في الشمال، إلى أعمال حلب وما فوقها من الحصون حتى إزاز.

وقد أفردتها الفاطميون - كغيرهم ممن سبقهم - قاعدة رئيسة للأسطول في ساحل الشام، وموقعا بریا متقدما في مواجهة البيزنطيين وعينوا عليها ولادة وقادة.

وصدت طرابلس في العهد الفاطمي ثلاث حملات ضخمة قادها الإمبراطور تزيمسكس والإمبراطور باسيل الثاني حتى شبّهت المدينة بصخرة جبل طارق حيث تحطمت جميع تلك الحملات عند أسوارها.

ازدهار المدينة في العهد الفاطمي:

في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، ظهر المعلومات عن انتشار المكتبات الأهلية في مساجد المدينة ودور علمها وخزائن الكتب التي وفقها ذوو اليسار من أهل طرابلس لطلبة العلم وأهله، فنرى أبا العلاء المعري يشد الرحال إليها، فينهل العلم فيها، ويتردد إلى مكتباتها، ولا يصرفه عنها إلا نعي أبيه سنة ٣٧٧هـ.

ويزداد شأن المدينة ارتفاعاً في هذا العصر، فتزدهر صناعاتها وتنشط حركتها التجارية، ويزداد حجم أسطولها الحربي والتجاري، وتكثر محصولاتها الزراعية، ويتسع عمرانها، حتى قال الرحالة والعالم الإيراني ناصر خسرو الذي زار طرابلس

حينذاك، "وحول المدينة المزارع والبساتين وكثير من قصب السكر وأشجار النارج والترنج والموز والليمون والتمر، وكان عسل السكر يجمع حينذاك.. وقد رأيت بطرابلس ما رأيت في بلاد العجم من الأطعمة والفواكه، بل أحسن منه مائة مرة". وكانت الحركة الصناعية نشيطة، فقد أشار خسرو إلى صناعة عسل السكر، وأيضاً هناك صناعة النسيج وصناعة الورق مثل الورق السمرقندي بل أحسن منه، أما من الناحية العمرانية، فقد أعطى هذا الرحالة وصفاً رائعاً لمدينة طرابلس كمدينة نموذجية من حيث العمران والبناء يكاد لا ينقصها شيء. فكل هذه العوامل أدت إلى أن تكون المدينة وأهلها من أكثر البلاد أموالاً وتجارة، على حد قول ابن تغرى بردى في كتابه "النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة".

بنو عمار وعصر طرابلس الذهبي

كان بنو عمار قضاة طرابلس على المذهب الشيعي ثم أصبحوا أمراءها، فمنهم أمين الدولة أبو طالب الحسن بن عمار (ت. ٤٦٤هـ) ثم جلال الملك أبو الحسن علي بن عمار (ت. ٤٩٢هـ)، ثم فخر الملك عمار بن محمد بن عمار (ت. ٥١٤هـ) وأبو المناقب شمس الملوك أبو الفرج محمد بن عمار (ت. ٥٠١هـ). كان استقلال بني عمار بطرابلس سنة ٤٦٢هـ/١٠٧٠م، وأصبحت في القرن الحادي عشر الميلادي أعظم مدينة على طول الساحل الشرقي للبحر المتوسط، فهي المنفذ البحري الرئيس لبلاد الشام، عن طريقه يتم التصدير والاستيراد، وكان بنو عمار وهم مثقلون برد الهجمات الصليبية عليهم من البحر والبر، يسيرون أسطولهم التجاري إلى ثغور البحر المتوسط، وظلت طرابلس ومعها دمشق تمونان أوروبا حتى أواخر العصور الوسطى بالسكر بجميع أشكاله المعروفة آنذاك، إذ أقام بنو عمار المصانع داخل المدينة لعصر قصب السكر الذي كان ينمو بغزارة على ضفاف نهر (أبو علي). وكان من حسن سياسة بني عمار وصلاح حكمهم، أن أثرت المدينة، وكانت على أحسن حال اقتصادي حتى خلال الحصار الصليبي لها برأً وبحراً، إذ ظلت صامدة تقاوتهم عشر سنين مستعينة بثروتها الداخلية وحسن إدارة اقتصادها، وعندما أوفد القائد الصليبي ريموند خلال الحصار وفداً لمفاوضة فخر الملك، ومر الوفد بأسواق طرابلس، أدهشه ما رأى من تنوع البضائع ورواج التجارة وعظيم الثروة والرخاء الذي تنعم به المدينة.

كان مؤسس الإمارة أبو طالب الحسن بن عمار، كبير العقل، سديد الرأي، عالماً، فقيهاً، كاتباً مجيداً، وقد أسس "دار العلم" التي جمع فيها أول الأمر أكثر من مئة ألف كتاب، وكان يبعث في التفتيش عن الكتب إلى جميع الأقطار، ويبدل في شرائها بلهظ

الأثمان، ويجلب لها الكتب النادرة، واستمر الأمر بعده في عهد خلفائه، هذا فضلاً عن عنايته بالعلم وطلابه، وتشجيعهم على الوصول إلى طرابلس لمتابعة الدراسة. وإلى جانب "دار العلم" قامت "دار الحكمة" التي قدم إليها العديد الكثير من طلاب العلم حتى أصبحت طرابلس كعبة يفد إليها طلاب العلوم والفنون من فقه وحديث ولغة وأدب وفلسفة وهندسة وطب، فازدحمت المدينة بأشهر الأعلام من أدباء وفقهاء وشعراء ولغويين، كما كان يفد إليها التجار والرحالة وطلبة العلم والعلماء، من كل البلاد، وقصدها الناس على اختلاف أجناسهم وأديانهم ومذاهبهم. وإذا كانت المكتبة قد بدأت بمئة ألف كتاب، فإن العدد ارتفع في عهد جلال الملك إلى المليون، ثم ارتفع في عهد فخر الملك إلى ثلاثة ملايين، وكان في المكتبة قاعة خاصة للنساخ والخطاطين مزودة بكل ما يحتاجونه من الأوراق والمحابر والأقلام، كما كان فيها قاعات للمطالعين الذين يفدون إليها من كل مكان. وكانت طرابلس تضرب الدنانير الذهبية في دار نقودها، وتتمتع بأسطول حربي وتجاري كبير، أسهم في الدفاع عنها وفي صمودها حين تعرضت للحملات الصليبية حتى سقطت بأيديهم بعد مقاومة استمرت عشر سنوات، ودخلوها في أواخر ٥٠٢هـ/١١٠٩م، وأحرقوا دار العلم التي كانت تضم أروع مكتبات الدنيا.

طرابلس في عهد الصفويين

اتخذ الصليبيون طرابلس عاصمة للإمارة اللاتينية (الكونتية الرابعة) التي تأسست في المشرق العربي بعد إمارة الرها وإمارة إنطاكية ومملكة بيت المقدس، وخضعت طرابلس لهم ١٨٠ عاماً ميلادياً. واشتهر في عهدهم معهد الطب الأكاديمي، وازدهرت حركة الترجمة من العربية إلى اللاتينية وبالعكس. وتعرف الإفرنجية، لأول مرة، على (البوصلة) وطريقة استخدامها على أيدي البحارة المسلمين في ميناء طرابلس، وتذوقوا قصب السكر وأعجبوا بطعمه ونقلوا منه وزرعوه في جزيرة صقلية وجنوبي إيطاليا، وأدهشتهم صناعة الحرير في مصانعها القائمة على ضفاف النهر، والتي كان فيها آلاف الأنوال وأدوات الغزل والنسيج.

طرابلس المملوكية

استعصت المدينة على المسلمين في محاولتهم لاسترجاعها، فأغار عليها الأمراء السلاجقة والتركمان، والأسطول المصري والأتابك عماد الدين زكي، وابنه السلطان

نور الدين محمود، ثم صلاح الدين الأيوبي وأخوه الملك العادل، ثم السلطان ظاهر بيبرس، وأخيراً السلطان قلاوون الذي حرّرها في سنة ٦٨٨هـ/١٢٨٩م. أمر السلطان منصور بدك المدينة القديمة إلى الأرض وبناء مدينة جديدة قرب القلعة والحي اللاتيني على بعد ميلين إلى الشرق من المدينة الفينيقية القديمة، فأزال السلطان قلاوون بقراره هذا كل المعالم التي كان يود الجميع أن يتعرفوا على آثارها ومواقعها، وسرعان ما اتسعت المدينة المستخدمة واستعادت موقعها وأهميتها، فاتخذها سلاطين المماليك طوال قرنين وربع القرن من الزمان عاصمةً لنيابة السلطنة، وأقيمت فيها عشرات المساجد والمدارس والزوايا والتكايا والخوانق والزيط والحمامات والخانات والقياسر والخوانيق، وأقيمت لها عدة بوابات في مختلف الاتجاهات، وكان بناء الحارات والدوار بأسلوب دفاعي حسب مقتضيات ذلك العصر، وأقيم على امتداد ساحلها من رأس الميناء إلى رأس النهر سبعة أبراج حربية للمرابطة فيها والدفاع عن المدينة، كما جرى ترميم الحصن الذي أسسه ابن مجيب الأزدي وأعاد بناءه ريموند دي سان جيل، وحوّكه نائب السلطنة سيف الدين الكرجي إلى قلعة كبيرة. وعادت المدينة إلى تأدية دورها القيادي في مجاهدة الصليبيين وطردهم من ساحل بحر الشام وجزره.

طرابلس العثمانية

دخلت طرابلس تحت السيادة العثمانية حين انتصر الأتراك على المماليك في (مرج دابق) سنة ٩٢٢هـ/١٥١٦م، وأبقوا على النظام المتبع فيها بتعيين الكفّال والنواب لبضع سنوات، إلى أن أصبحت تؤجر للإقطاعيين الذين ينيبون عنهم من يتولى حكمها، وذلك اعتباراً من سنة ٩٢٨هـ/١٥٢٢م، وقد احتفظت المدينة بأهميتها السياسية ودورها الحربي، فاتخذها الأتراك حاضرة لولاية كبيرة في ساحل الشام، كان يتبعها من الأعمال: جبيل وبلادها، والبترون وبلادها، وجبّة بشري والحدث والكورة والزاوية والضنية، ثم أصبح إقليم عكار من ملحقاتها أيام واليها "يوسف باشا ابن سيف" سنة ٩٨٨هـ/١٥٨٠م.

وأقيم في الطرف الشمالي من المدينة خان أو معسكر للجند ما زال يعرف حتى الآن بخان العسكر، وفي الطرف الجنوبي منها أقيم رباط للمجاهدين والغزاة يعرف برباط الخيل.

وأوجد العثمانيون عدة مناطق سكنية جديدة أحاطت بمدينة المماليك، فازدادت عمراناً واتساعاً، وتضاعف عدد مساجدها ومدارسها وزواياها وتكاياها وحماماتها

وخاناتها حتى بلغ ما فيها ٤٤ خاناً بحسب سجل المحكمة الشرعية بطرابلس سنة ١٠٧٨هـ/١٦٧٧م. وأعادوا بناء القلعة والأبراج والحصون الساحلية والبوابات، واستعادت منطقة ميناء (طرابلس القديمة) دورها التجاري فكثرت فيها القنصليات الأوروبية، وأقيمت الوكالات المخازن الضخام لاستيعاب المنتجات والبضائع الصادرة والواردة من القطن والسكر والصابون والقماش والفواكه والجلود والحبوب وغير ذلك.

وقد تأثر دورها السياسي والاقتصادي منذ أن هاجمها الأمير فخر الدين المعني الثاني، وهدم قصور آل سيفا في المدينة وفي عكار، كما برز نجم صيدا في الجنوب وميناء الإسكندرون في الشمال فزاحم ميناء طرابلس وأفقداه جزءاً كبيراً من تجارتها. ويعتبر عهد الأتراك في طرابلس أطول العهود الإسلامية التي خضعت لسيادتها، حيث امتد حكمهم نحو نيّف وأربعة قرون باستثناء ثماني سنوات خضعت فيها للحكم المصري حين دخلها إبراهيم باشا ١٨٣٢م، ثم عادت للأتراك عام ١٨٤٠م. ثم خضعت للانتداب الفرنسي بعد الحرب العالمية الأولى. وبعد استقلال لبنان عام ١٩٤٣م، كانت طرابلس مؤهلة لتكون عاصمة دولة الاستقلال، لكن بيروت تقدمت عليها لتصبح العاصمة الأولى، وتقع طرابلس بلقب العاصمة الثانية!

في قلب المدينة

في الساحة المركزية لطرابلس (التل) نجد الساعة العثمانية ذات الطبقات الخمس المهداة من السلطان عبد الحميد الثاني، وبجوارها حديقة المنشية، وقصر "توفل" العثماني، المعروف اليوم بمركز "رشيد كرامي الثقافي" بعد أن حولته بلدية المدينة إلى مكتبة عامة وقاعة محاضرات ومعارض، ونرى حول ساحة التل المباني السكنية والتجارية والفنادق ذات الطراز العثماني.

بداية حدود المدينة القديمة

في أقل من دقيقة مشياً على الأقدام إلى ساحة "الكورة" التي تتجاوز بها العمارة العثمانية والحديثة، ومنها في دقيقة إلى ساحة السلطان الأشرف خليل بن قلاوون، حيث بداية حدود المدينة القديمة، فتتنشق عقب التاريخ حين تأخذك المعالم الأثرية في هذه المدينة إلى مئات السنين خلون من تاريخها.

ونصل إلى الجامع المنصوري الكبير الذي أسسه السلطان الأشرف خليل بن قلاوون، وتم بناؤه في العام ١٢٩٤م، وهو أكبر جوامع المماليك في طرابلس ولبنان وأقدمها، وحوله عدة مدارس مملوكية، منها: مدرسة الشيخ الهندي المعروفة بـ

"المشهد" والمدرسة الشمسية التي يقع فوقها دار صاحبها القاضي شمس الدين الإسكندري، هذه الدار تقدم أقدم نموذج للبيوت المملوكة القديمة. وهناك المدرسة الناصرية، وفوق بابها شعار السلطان "الناصر ابن محمد بن قلاوون"، وبجوارها مدرسة "الخيرية حسن" التي تحمل اسم مؤسسها سنة ١٣١٦م. أما مدرسة الأمير شهاب الدين قرطاي، فهي أكبر مدارس المماليك وأملها في طرابلس ولبنان على الإطلاق، بناها بين العامين ١٣١٦ و١٣٢٦م، وهي تضاهي ببوابتها الشمالية أجمل مساجد طرابلس ودمشق وأفخمها، ولا بد من الالتفاف حول المدرسة عبر سوق العطارين للوصول إلى زقاق الأمير من الجهة الجنوبية ومطالعة عشرة مراسيم سلطانية من عصر المماليك نقشت على جدار المدرسة ودار الأمير وباب الجامع الكبير، ورؤية رنك (شعار) الأمير والكتابات والزخارف الرائعة فوق نوافذ المدرسة.

مدارس ومدارس

من سوق العطارين الذي يعج بالباعة والمارة، نصل في خلال دقيقة واحدة إلى محلة المهاترة المتراسة البناء والمحصنة، والتي تدل بوضوح على أنها الحزام الأمني والخط الدفاعي المحيط بالقلعة، ولها باب أثري كان يسمّى "الباب الأحمر" وكان يقفل عند المساء. في هذا المكان "مدرسة الرفاعي" من العصر العثماني، و"مدرسة العجمية" المملوكية قرب هذه المدرسة واحد من أقدم الأزقة وأضيقتها، عرف قديماً بـ "زقاق الأسرار" ويعتبر نموذجاً حياً من نظم العمارة المدينية – الدفاعية في آن معاً.

قلعة طرابلس

من بوابة المهاترة صعوداً بالدرج، وفي خلال ثلاث دقائق، نصل إلى قلعة طرابلس، وهي أهم القلاع الحربية في لبنان وأقدمها، أسسها القائد الإسلامي سفيان ابن مجيب الأزدي عام ٦٣٦م، وبنى فيها الفاطميون مسجداً أوائل القرن الحادي عشر الميلادي، وجدّد القائد الصليبي "ريموند دي سان جيل" حصناً فوقه في العام ١١٠٣م، ثم حوّلته الأمير المملوكي، أسندمر الكرجي، في العام ١٣٠٧م إلى قلعة، وبنى بها أبراجاً، ثم أضاف السلطان العثماني "سليمان بن سليم الأول" عام ١٥٢١م البرج الشمالي، وفيه باب القلعة. تقع القلعة فوق تلة صخرية مرتفعة، وتتألف من ٤ طبقات، طولها ١٣٠م، وعرضها ٧٠م. بها ثلاثة مساجد وحمّام قديم، وسجن، وإسطبل للخيل، وقاعات للقادة وكبار المسؤولين، وقاعات ضخمة للجند والذخيرة والمدفعية، وآبار وخزانات للمياه، وأحواض للشرب ومقابر، وباحات واسعة للتدريبات العسكرية والاستعراض، وأكثر من ١٠٠ حجرة مختلفة الاتساع، ونحو

١٠ أبوا في أسفل أسوارها، بعضها يؤدي إلى النهر، وبعضها يؤدي إلى الأسواق الداخلية، وترتفع أسوارها بين ١٥-٢٠م، وبها نوافذ للمدفعية، ومن على متن السور، بعرض مترين، يمكن رؤية المدينة مع الميناء وجزرها في البحر والطريق إلى بيروت، والطريق إلى حمص، ومن فوق السور الشرقي نرى جبال الأرز وسفوحها، ووادي قاديشا، وتشرف من القلعة على "تكية الدراويش المولوية" وهي على مسافة ٢٠٠م من القلعة جنوباً بناها "صمصجي علي" في العصر العثماني في العام ١٦١٩م.

مساجد ذات طابع مملوكي وعثماني

من القلعة هبوطاً باتجاه الشمال، نصل إلى محلة "طلعة السمك" فنرى "جامع الأويسية" من عصر الممليك بني في العام ١٤٦٢م، أما مئذنته فعثمانية بنيت في العام ١٥٣٥م، وجواره آثار كنيسة من عهد الصليبيين. وفي نصف دقيقة نصل إلى زقاق "سيدي عبد الواحد" وفيه خان الخشب، وأمامه جامع "عبد الواحد المكناسي" المغربي الطراز، المبني في عصر المماليك في العام ١٣٠٥م، وبقربه مسجد "البهاء" وهو مسجد قديم جُدد في العام ١٧٥٠م، ثم في العام ١٨١٩م، وهناك دار أحد أعيان المدينة في العصر المملوكي، زينت عتبتها بالزخارف الرائعة.

من زقاق سيدي عبد الواحد، نصل فوراً إلى سوق العطارين بطرفه الشمالي، ومنه إلى سوق البازركان، قلب الأسواق النابضة بالحياة، المتخصص بالأقمشة على مختلف أنواعها وألوانها.

إلى خان الخياطين وخان المصريين

نتابع السير، فنصل في خلال دقيقتين إلى "حمام عز الدين" من عصر المماليك، وهو أكبر حمامات طرابلس ولبنان، بني بين العامين ١٢٩٥ و ١٢٩٩، ونرى الكتابة ونقوش اللاتينية فوق بابيه الخارجي والداخلي، وهي تشير إلى أنها من بقايا الآثار الصليبية، وبعد الحمام بخطوات قليلة "خان الخياطين" أشهر خانات طرابلس وأجملها، وهو متخصص بالخياطة والأزياء الطرابلسية والوطنية والعربية، وبمواجهة خان الخياطين، "خان المصريين" بناه السلطان المملوكي الناصر بن محمد بن قلاوون في النصف الأول من القرن الرابع عشر الميلادي، وكان خاصاً بالتجار والنزلاء القادمين من مصر.

محلة التربيعة وقصر الأمير

من الباب الغربي لجامع العطار، يقابلها "خان الجاويش" المشغول معرضاً للآثاث، وبداخله كتابات بالتركية، وبجواره على جانبي الطريق، حوانيت لحرفيين يعملون في الصناعات الطرابلسية التقليدية، وفي ثوان معدودة، نصل إلى عقدة من الطرق المسقوفة جدرانها من الحجارة الرملية، وهي "التربيعة" ويظهر فوق الطريق قصر الأمير المملوكي "سنجر الحمصي" الذي سكنه في العام ١٣٢٤م، وعلى مسافة أقل من دقيقة، غرباً، توجد "ساحة الحمصي" وتعرف حالياً بـ "التربيعة" وفيها مدرسة الأمير "سنجر الحمصي" وبتجاه الغرب أيضاً، طريق ضيقة ومسقوفة على جانبيها بيوت ومدرسة وخان، وجدار به نوافذ حربية للدفاع عن البوابة التي كانت عند آخر الطريق، وهي تؤدي إلى خارج نطاق المدينة القديمة.

بين مسجدي "شرف الدين" و"الحميدي" كنائس متعددة

من بوابة التربيعة، في دقيقة واحدة نمر في طريقنا بجوار جامع شرف الدين الذي أسسه حاكم طرابلس العثماني علي بك الأسعد المرعبي في العام ١٨٢٤م، ونصل إلى حي النصارى حيث تتجمع عدة كنائس أقدمها كنيسة "مار نقولا" وكنيسة "مار جاورجيوس" وكنيسة "مار ميخائيل" وكنيسة "مار يوسف" وعلى مسافة دقيقة واحدة من هذه الكنيسة، يقوم ناحية الغرب "جامع الحميدي" نسبة إلى السلطان العثماني عبد الحميد الثاني حيث جُدد في عهده في العام ١٨٩٢م، وكان قديماً يسمّى "جامع التفاحي".

خان العسكر وسوق حراج

من الجامع الحميدي، نتجه شرقاً نحو أكبر خانات طرابلس ولبنان، "خان العسكر" المؤلف من ثلاثة أقسام تنتمي إلى ثلاثة عصور، صليبية ومملوكية وعثمانية، وبجوار الخان، "جامع التوبة"، بناه السلطان "الناصر محمد بن قلاوون" حوالي عام ١٣١٥م، وجُدد فيعهد بني سيفا، أمراء طرابلس في العصر العثماني في العام ١٦١٢م.

وباتجاه الشرق، نصل إلى السوق الأثري المعروف بـ "سوق حراج" وهو من عصر المماليك، وفيه أعمدة غرانيتية مرتفعة تتوسط ساحته وأعمدة ضخمة قائمة داخل الحوانيت حول الباحة، وفي هذا السوق، نشاهد الصناعات والحرف الطرابلسية التقليدية من خشبية وقطنية وجلدية.

وهناك "بركة الملاحة" التي كانت ثملاً في الأعياد بأنواع الشراب من عصير البرتقال، أو التمر هندي، أو الليمون، أو السوس، ويشرب منها الناس مجاناً لمدة ثلاثة أيام، وأحياناً لمدة أسبوع كامل.

جامع البرطامي

في منتصف الطريق إلى هذا الجامع، نجد قصر الأمير المملوكي "سيف الدين الطنطاش"، وبعده مدرسة "الشهداء" نسبة إلى رجالات طرابلس الذين قطع رؤوسهم إبراهيم باشا ابن محمد علي في العام ١٨٣٤م، وعند المدرسة بركة ماء يشرب منها الناس مجاناً.

أما جامع "البرطاسي" الذي بناه "عيسى بن عمر البرطاسي" في العام ١٣١٠م، فهو من الجوامع المملوكية، به تأثيرات بيزنطية في المحراب، وكتابات فاطمية، ونقوش فوق الباب، وهندسة مغربية - أندلسية في مئذنته المدهشة التي تقوم فوق نصف عقد فارغ فوق البوابة بالرغم من ثقلها وارتفاعها.

آثار وأسواق

وفي خلال دقيقتين، وبتجاه الغرب، نصل إلى قصر الأمير عز الدين أيبك الموصللي، وهو من عصر المماليك، وبه زخارف أندلسية، وبعده القصر، ضريح الأمير، وفوق نافذته اللوحة التاريخية لعام ١٢٩٩م، وهناك "المدرسة القادرية" المملوكية.

ومن موقع حمام "عز الدين" يبدأ سوق "النحاسين" باتجاه الغرب، وهو متخصص بصناعة النحاسيات والتحف الرائعة، وهناك مسجد "الحجيجية" المملوكي، ويوجد "مزار السيدة" للروم الأثوذكس.

وفي نهاية زقاق البرطاسي، هناك مدرسة "القاضي أوغلو" العثمانية، وهي تقع في أول سوق "الكندرجية" من جهة الغرب، وهو أحد الأسواق المزدهمة بالمارة، وفيه محلات لبيع الملابس والأحذية والحقائب النسائية.

لله خان الصابون لله ولله حمام العبد لله

في سوق الصياغين، المتخصص بصياغة الذهب وبيعه، يقع "خان الصابون" من العصر المملوكي، وبه صناعة الصابون الطرابلسي، المعطر والملون، وفي وسط السوق على اليمين، زقاق و"حمام العبد" وهو من العصر العثماني، وما زال يعمل إلى الآن، وهناك المدرسة "الطواشية" المملوكية، كما هناك مدرستان تحولتا إلى متجرين، وبين هاتين المدرستين نصل خلال نصف دقيقة إلى زقاق صغير يعرف بـ "زقاق النمل" ويدخله مدرسة مملوكية تزين بابها زخارف هندسية.

ومن سوق الصياغين جنوباً نصل إلى "المدرسة النورية" الجميلة، وبداخلها أجمل محراب من عصر المماليك، وأمامها مباشرة حمّام النوري، وعلى بعد ثلاثين متراً إلى الجنوب من "المدرسة السقرسقية" يقع جامع "أرغون شاه" الذي بُني بين العامين ١٣٩٢ و ١٤٠٠م، ويمتاز هذا الجامع بمنذنته الأسطوانية المزخرفة. وقرب المدرسة الخاتونية، يقع "جامع الطحّام" المملوكي ذو المنذنة الرائعة بزخارفها.

الجامع المعلق ورباط الخيل

من تحت جامع "الطحّام"، نمر بطلعة "العويّات" البيضاوية الشكل ذات المنافذ الثلاثة، الفريدة بتخطيطها المدني القديم، وفيها المعالم المملوكية والعثمانية، ومنها جنوباً نصل إلى زقاق "رباط الخيل" وفوقه كتابة منقوشة، ونوافذ حربية لرمي السهام.

وأمام "رباط الخيل" مبنى "الخانقاه" ببوابته المملوكية، وبداخله باحة في وسطها بركة ماء، ومن حولها حجرات تسكنها نسوة أرامل لا معيل لهن، وفي الجهة الجنوبية مسجد وحجرة فيها قبر السيدة الصالحة صاحبة هذا المبنى، ومنه باتجاه الغرب، يوجد "الجامع المعلق" العثماني الذي بناه محمود لطفي الزعيم في العام ١٥٥٦م، وبجواره حديقة فيها قبر صاحبه، وبجوار الجامع يقع "الحمام الجديد" الذي بناه والي طرابلس العثماني إبراهيم باشا العظم بين العامين ١٧٢١ و ١٧٣٠م، وهو أجمل وأفخم الحمامات في لبنان.

جامع طينال

لعلّ أجمل جوامع طرابلس ولبنان هو جامع "طينال" الذي بناه الأمير المملوكي سيف الدين طينال الأشرفي الحاجب، وهو يضاهي أجمل جوامع القاهرة ودمشق، يتألف من بيتين للصلاة، بينهما أروع بوابة من الرخام هي تحفة فنية بهندستها وزخارفها، وكتابتها وألوانها.

ففي بيت الصلاة الأول تتألف عناصر الغرائب في الأعمدة المجلوبة من مصر الفرعونية، والتيجان الرخامية الكورنثية من العصر البيزنكي، والعقود والقباب الرملية المملوكية.

وفي بيت الصلاة الثاني (الداخلي)، المحراب والمنبر الخشبي، من عمل المعلم محمد الصفدي، عام ١٣٣٦م، ويتميّز الجامع بمنذنته الفريدة ذات السلمين اللولبيين من الحجارة، اللذين بعضهما فوق بعض، لا يرى الصاعد أو النازل منهما بعضهما

البعض، ولها بابان، داخل الجامع وخارجه، والمئذنة عبارة عن برج حربي، وفي أعلاها شعار الأمير "الكأس".

إلى الميناء

نترك "المجمعات الأثرية" ونتوجه إلى منطقة الميناء التي تشكل واجهة طرابلس الساحلية، ويلتف حولها الكورنيش البحري، والذي يعتبر أهم منتزه لأبناء المدينة، ومنه تنطلق المراكب السياحية إلى جزر طرابلس الإحدى عشرة المتناثرة وسط البحر، والتي أعلن بعضها محميات طبيعية (جزيرة الأرناب، والنخيل...) ومنها يتمتع المرء برؤية مدينة طرابلس المنبسطة، والجبال المرتفعة وراءها، والسواحل المحيطة بها. تنتشر على أطراف الكورنيش فنادق صغيرة، ومقاه ومطاعم يقدم أكثرها وجبات السمك التي تشتهر بها الميناء، من هنا أيضاً يمكن زيارة المدينة القديمة، والتي تعتبر مصغراً لطرابلس القديمة، وتتميز بتخطيطها وواجهتها البحرية ذات الطابع التقليدي من ساحل البحر المتوسط، ومن أهل المباني الأثرية في الميناء: "برج برسباي" المملوكي، بناه الأمير "برسباي بن عبد الله الناصري، بين العامي ١٤٣٩ و ١٤٤٧م، وخان التماثيلي المملوكي الذي جُدد في العصر العثماني، والمدرسة الماردانية المملوكية (١٣٠٧م) وعدد من الكنائس والمساجد القديمة. في الميناء يقع مرفأ طرابلس، وهو ثاني أكبر مرفأ في لبنان، ومحطة سكة الحديد، أهم الشوارع فيها، شارع الرئيس "رشيد كرامي" المعروف بشارع "بورسعيد" الذي يقع وسط المدينة، ويفصل بين شطري المدينة القديمة والحديثة، شق هذا الشارع في العام ١٨٧٩م، ويشكل صلة الوصل بين مدينتي طرابلس والميناء.

في طريق العودة إلى بيروت، تتحسس وكأنتك كنت في رحلة تاريخية محمولاً على بساط الأمم والعهود السالفة، وتنتشق عبق التاريخ الإسلامي في هذه المدينة التي قاومت، على مدى العصور، التغريب والذوبان، نعود وفي الذاكرة صور رائعة عن تاريخ هذه المدينة، وفي الأيدي بعض الحلويات التي تشتهر بها طرابلس.

اعتمدنا في هذا الاستطلاع على:

١. ما كُتب حول طرابلس في مجلة تاريخ العرب والعالم.
٢. كتاب قصة مدينة، إعداد منذر عوض.
٣. كتابات المؤرخ حسن الأمين حول بني عمار.
٤. كتيب: جولة في رحاب طرابلس الفيعاء، كتب النص الأستاذ الدكتور عمر تدمري، وأعد الكتيب المهندس خالد عمر تدمري لصالح بلدية طرابلس.
٥. كتاب الشيعة في طرابلس ليحيى فرحات.